قصة
قصيرة
خطايا
العذارى
شرين رضا

قـصـة قصـــيرة

خطـايـا العـذارى

للكـاتبـة

شـريـن رضـا

المقـــدمـــة

وحدة القلب أشد قسوة من صفعة تتلقاها على يد غريب

"خطايا العذارى"

من بين قضبان الليل يعوي الصمت داخل منزل الموتى، ذلك المنزل المائل على آخر حارة البساتين، تسكنه ثلاث شقيقات بدينات يعيشن وحيدات بلا رجل أو عائلة حقيقية تحتويهن،

ثلاثة قطع لحم صامتة، يسيرن بين الحشود وسط الحارة، يلمحن في عيون المارة تلك النظرة التي تشقق جلودهم كلما استمعنا إلى لقب العانسات البدينات، وكم هو مؤلم أن تكون شخصا غير نفسك، كلماتك الوحيدة هي الصمت.

الثلاث شقيقات (منال، ومها، ومنى) كما تجرى العادة في مجتمعنا تكون الأخت الكبرى هي الأم بعد وفاة والدتها ولكن هنا لم تكن منال تستطيع أن تقوم بهذا الدور، فكان للأخت الوسطى مها هذا الدور وتتبعها منى في تطبيق أوامرها وتبقى منال تلك الحائرة ذات الجدائل الكحلاء التي لم تتغير جدائلها منذ الصف السادس.. وها هي شارفت على الأربعين، تنظر لحياتها العاثرة، تراقب القدر الذي خذلها مرارا وتكرارا، تجلس تراقب أطفال الحارة وهم يمرحون أمامها ينادونها بالخالة بدلا من سماع كلمة أمي.

حملت منال معاناة وحدتها وحدها، فبعد رحيل والديها جراء حادثة سير وهي تعلم أن الحياة تراوغهم، تضعهم داخل دوامة لن يستطعن الخروج منها وحدهن.

يطرق بابهم من حينٍ لآخر رجلا واحدا وصوتا قد اعتادت أذانهم سماعه وكأنه صار قناة إذاعية يأتي يصيح بصوته الجهوري مطالبا بنقوده.. العم محروس الدائن الذي يدينون له بالكثير من المال، يأتيهم كل شهر مطالبا بجزء من أمواله، تعطيه له مها من مصروف المنزل الذي يدخرونه من معاش والدهم، تراه منال ثقل آخر يستنزف من قوتهم كل يوم، نظراته المملوءة بالجشع والتي لا تشبع

فكلما انتهى دين يظهر آخر من العدم، وليس عليهن سوى الخضوع له، فلا سندا لهم يقف أمامه وينتشلهن من ذلك الطريق.

محروس رجل في العقد الخامس من عمره يملك هيئة رجل في الأربعين ودائما ما يسدل خصلة من شعره الرمادي فوق جبينه وأسنانه البيضاء اللامعة من ينظر إليها يكاد أن تصعقه بنصاعها

يقفن الفتيات الثلاث ينظرن من نافذتهن يراقبن خطواته التي حملت رائحة عذريتهن وهو يرحل بعيدا، ثم تعود كلُ منهن لغرفتها تنتظر ما تبقى من أيام صمتها، يتأملن حوائط المنزل الذي يكاد يسقط من شدة وحدته التي يشاركها معهن.

تمر الأيام والشقيقات الثلاث ما زلن يتأملن عودة الأمل، وأن ينشق رداء الوحدة ليخرجن للنور مرة أخرى.

وذات يوم طرق باب الشقة فأسرعت الأخت الوسطى لفتح الباب ولكن سبقتها منال قائلة:

– انتظري سوف أرى من! أجابتها بثقة على معرفة من الطارق:

– إنه السيد محروس ليس هناك غيره من يطرق بابنا

– أعلم، سوف أتحدث معه وسأعقد اتفاقا كي لا يطالبن مجددا بأموال الدين

نظرنا لها والدهشة تعلو ملامحهما، ووقفت الشقيقتان جانبا ليروا ماذا ستفعل منال معه.

فتحت منال الباب وإذا بالسيد محروس يقف كعادته يتكأ على الحافة، نظر إليها وابتسامته السمجة ترسو على ثغره قائلا: – مرحبا بالجميلة

جملة عابرة رسمت على ملامح منال ابتسامة ملأت وجهها ثم تراجعت للخلف وأشارت له بالدخول.

نظر لها متعجبا فتلك المرة الأولى التي يسمحن له أن تطأ قدماه الشقة.

نظرت لها مها نظرة امتزج فيها الخوف والتعجب وتمسكت بالصمت الذي أعتدته وجلست تشاهدها.

دخل محروس الشقة وراحت جدرانه تتشبع بتلك السعادة التي غمرت منال، وأصبحت ألوانه تزهو قليلا فقد شاركتهم نفسا كانوا يتوقون جميعا إليها، دخل رافعا كتفيه إلى الأعلى وكأنه رجل المنزل، وانفتحت أمامه أبوابه، ظل يحدق في جدران الشقة وكأنها الفتاة الرابعة التي يتغزل مفاتنها.

جلس على إحدى الكنبات التي افترشت عليها بعض الملابس فأسرعت مها والتقطتهم سريعا وكأنه يتحسس واحدة منهن

اقتربت منه منال والابتسامة لاتزال تفترش ملامحها، جلست أمامه وأردفت قائلة:

– نعلم أن دين والدنا لم يسدد بالكامل

أجابها ونظراته تخترق جسدها من بين فتحات جلبابها العلوية فارتبكت قليلا وحملت شالها ووضعته فوق كتفيها وسط نظرات شقيقتها الجافة.

– لا تقلقِ يا منال فوالدك كان صديقا لي، ولن أكون ورقة ضاغطة عليكن فأنتن وحيدات وأنا أعلم بوضعك أنتِ وشقيقاتك

نظرن له جميعا حتى تفوهت مها غاضبة

– وما شأنك بنا وبأحوالنا، ليس لك سوى المبلغ الذي تأتي لاستلامه منا

نظرت لها منال وعنفتها على ما تفوهت به ثم استدارت له بعد أن وضعت قناعها مرة أخرى، وابتسمت قائلة:

– أريد أن أعقد معك اتفاقا

– عن ماذا؟

– عن كل شيء، واستمع لي حتى النهاية

انتبه الجميع إليها وهم مترقبين لما ستتفوه به حتى استطردت حديثها وقالت:

– أنت تعلم إننا وحيدات في تلك الحياة وليس لنا من أقارب سوى أعمام والدي ويعيشون بعيدا ولا نعلم عنهم شيئا، والآن هذا الدين يستهلك من قوت حياتنا وتعلم تجهيزات البنات عندما يتقدم لهن عريس

نظرن له بخجل وقد رأى محروس إن شقيقاتها لا يعلمن ما تريد الاتفاق عليه

ثم أكملت حديثها: – أريد أن أعرض عليك أمرا سيعود على الجميع بالفائدة، توقفت عن الحديث وصارت تبتلع ريقها وقالت:

– ستشاركنا هذا المنزل.

أرتفع صوت الفتيات بغضب ثائرين عما تفوهت به شقيقتهما.. وظل محروس صامتا يريد أن يعلم سبب هذا التحول منها بعد ما كانت تشمئز النظر إليه طوال سنوات.

وقفت منال وحاولت تهدئتهما وامسكت بذراع مها بغضب قائلة: – اصمتِ أنتما لا تعلمان إنني أفعل هذا لصالحكما، وأثناء ما كانت تحاول إقناعهما كان محروس يراقبهم كذئب ينتظر أن يتفرق القطيع لينقض على فريسته

عادت منال وجلست أمامه متلحفة بوقارها، وهدوئها المعتاد وقالت:

– يمكنك أن تقيم معنا في المنزل وتكون لك حصة منه ولكن مقابل أن تتزوج بي

هنا صمتت الفتيات وصاح كل ما فالمنزل، الجدران والأثاث والهواء الذي يحيط بهم ونظر لها محروس وابتسم قائلا: هل تمزحين؟

– لا هذا شرطي الوحيد لكي ننهي هذا الدين ويصبح لك نصيبا من المنزل ويكون تواجدك بيننا شرعيا أمام الناس

– وماذا إذا لم أكن أرغب في الزواج منكِ أو لا أفكر فيه

– وما الذي يجعلك ترفض الزواج بي، فنحنُ لم نر لك امرأة من قبل وليس لك عائلة كما إنني جميلة وأملك مقومات الأنوثة التي يرغب فيها أي رجل وفوق هذا لن تتحمل أي شيء بل سأعطيك.

نظرت لها مها نظرة غريبة وكأنها تراها لأول مرة، لقد باعت شقيقتهما نفسها له ولم تخجل من فعلتها، وازدادت نظرات محروس تعجبا، حتى امتزجت معها نظرات الشهوة التي تملكته نحوها فهي حقا بدينة ولكنها تملك مقاومات الأغراء التي تمتلكها أي امرأة

– موافق .... قالها محروس والسعادة تقفز من فوق وجهه، وكأنه فاز بجائزة اليانصيب.

افترشت السعادة وجه منال، وشقيقاتها تبتلع كلُ منهما ريقها على مضض وغضب مما فعلته شقيقتهما.

رحل محروس بعد الاتفاق على عودته مرة أخرى، ووقفت مها أمام منال غاضبة قائلة لها:

– ما تقومين به خطأ، كيف تعرضين نفسك على رجلٍ كهل كهذا، ما ترينه أمامك زينة يتباهى بها أمام الناس

– لا شأن لكما بما أفعل فهذا قراري وسوف أتزوج به

اقتربت منها منى ببطء وعلامات البكاء تنسدل على وجنتيها:

– أنتِ جميلة يا منال وتستحقين من هو أفضل منه

اقتربت منها منال وبنظرة تحدي قالت لها:

هذا الرجل لن يتراجع عن سلب أموالنا، وهناك طريقة واحدة فقط لإيقافه

صاحت مها في وجهها قائلة:

–وهل الزواج منه هو الطريقة المناسبة لهذا

–أنتما لا تشعران بي ولا تستوعبان ما يقوم به هذا الرجل من سلب أموالنا وما أقوم به لصالحنا جميعا

وقفت الشقيقتان أمام منال بعد أن تحجرت الكلمات في حلقهما، ينظران لها وكأنهما ينظران لغريبة عنهما، فبادرتها مها قائلة: – ماذا تقصدين؟

–عندما تصلين لعمري سوف تفهمين ما أقوم به.. قالتها ثم تركتهما ودخلت إلى غرفتها.

مر أسبوعان ومنال تزداد غرابة وعملت على تجهيز ما يلزم للزفاف، وشقيقاتها يساعدانها بصمت حتى جاء محروس وتم التنازل وأصبح شريكا لهن واتفق الاثنان على موعد لعقد القران.

بدأت منال في شراء احتياجاتها الخاصة، وأكثرت من شراء الملابس المزركشة ومساحيق التجميل وكأنها فتاة مراهقة.

حتى حررت جدائلها لأول مرة لتشعر بالحياة تتراقص بين خصلاتها، فعملت على طلاء ذلك المنزل الذي ظل سنواتا يختبئ خلف غيمته الرمادية. ومرّ أسبوعا آخر والجميع يعمل في صمت، وقبل موعد الزفاف بيوم، دخلت مها غرفة منال وهي تبكي، جلست جانبها .. استدارت لها بعد أن أيقظها صوتها الباكي.. اعتدلت في جلستها ممسكة بيديها قائلة: – مها هل حدث شيئا ما

– لا ولكن سيحدث يا منال أرجوكِ أوقفي هذا الأمر ولا تتزوجي من محروس

أدارت منال وجهها ثم قالت لها: – لقد أنتهى الحديث في هذا الأمر والزفاف غدا

– وماذا سيحدث بعد ذلك؟

صمتت قليلا ثم اردفت قائلة: – أريدك أن تكوني في أبهى صورة لكِ غدا

ابتعدت مها عنها غاضبة وهي تقول:

–كيف لكِ أن تُبعين نفسك بهذا الشكل لرجل كهل كهذا؟

اعتدلت منال وامسكت بيديها وقالت: كنتُ أتمنى أن يتوقف بي العمر عند السادسة عشر، ولكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه.

وضعت يدها على وجنتيها واستطردت قائلة: – بشرتك لا تزال ناعمة، لكن انظري لي فقد بدأت التجاعيد تنكمش فوق جبيني وعيناي أزدادت الخطوط السوداء أسفل منهما، بعد عام لن أستطيع أن أحمل طفلا بين يدي وستغتصب الحياة آخر حق لي، ولهذا اتركوني أعيش تلك اللحظة قبل أن تسرق الحياة ما تبقى مني.

تنهدت مها بثقل بعد أن علمت ما تكنه شقيقتها، تلك الحياة القاتمة التي تسكنها قضت عليها حتى جعلتها تتعلق بأمل مزيف

راحت تدعو في سريرة نفسها ألا تخذلها الحياة والا تصيبها خيبة الأمل حتى لا تفقدها للأبد.

في صباح اليوم التالي دعت منال جيرانها ليشهد الجميع على حياتها الجديدة، جلسوا مترقبين اللحظة التي ستجتمع فيها الجميلة والوحش كما اطلقوا عليهما.

مرت الساعة تلو الأخرى ولم يأتِ محروس، بدأت منال تتجعد ملامحها، والحزن يطفو داخلها، لماذا لم يأتِ إلى الآن؟

مر الوقت وأسدل الليل ظلامه، وبدأ المدعوين في الرحيل فجلست منال متكورة على حالها ، نمسك بصورة والديها وتبكي تشكو له خيباتها، تخبرهما بتلك الغصة الذي صارت تنقر داخلها حتى بعد ما باعت نفسها بثمن بخس، ما زلت الحياة تُبخل عليها بابتسامة بائته.

فجأة طرق الباب فإذا بها تصيح: – انتظروا لقد أتى لا ترحلوا

فتحت الباب فرأت شابا يافعا يبدو فالعشرين من عمره يقف أمامها فأسرعت الابتسامة واختبأت من على وجهها وقالت: – من تريد

– هل هذا منزل السيد محروس –

– نظرت له منال بتعجب وبتلعثم أجابته: – نعم هذا هو

– أنا سعيد أبن السيد محروس ولقد توفى أبي منذ يومان تاركا في وصيته حقي في هذا المنزل